أ.موسى مـــــريان

السَّرقـــات الشعْريّـــة وأنواَعُها في نظرَ ابن رشيـــق القيـــروانيّ

« ... **ولولا** أنّ القائلَ يؤدّي ما سمع لما كان في طاقته أن يقول ... ». أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري.

عرف النّقد العربي القديم ممارسة نقديّة متميّزة اشتهرت بالسّرقات الشعريّة. وجّه فيها النقّاد نظرهم إلى النّصِّ الشّعري وعلاقته بنصٍّ أو نصوص أخرى معاصرة له أو أقدم منه، من حيث المعنى، والألفاظ، والتّأليف.

وقد حظيت السَّرقات الشّعريّة باهتمام بالغ من طرف النّقّاد العرب القدامى، وبالأخص في المائة الرابعة والخامسة للهجرة، من أبرزهم القاضي الجرجانيّ (ت 366هـ) في الوَسَاطة، وأبو هلال العسكريّ (ت395هـ)، في كتاب الصِّناعتين، وابن رشيق القيروانيّ (ت456هـ) في العُمدة وقُرَاضة الذهب.

يرى القاضي الجرجانيّ – مثلاً – أنّ النّظر في السّرقات الشّعريّة بابٌ صعب، « لا ينهض به إلاّ النّاقد البصير والعالم المبرِّز»[2]، وأنّ النّاقد لا يعدّ ناقداً إلا إذا أحكم هذا الباب، وحذق كلّ ما يتعلّق به. يقول[3]: « ولست تُعدّ من جهابذة الكلام، ونقّاد الشّعر، حتّى تميّز بين أصنافه وأقسامه، وتحيط علمًا برُتبه ومنازله، فتفصل بين **السَّرَق** و**الغَصْب**، وبين **الإغارة** و**الاختلاس**، وتعرف **الإلمام** من **الملاحظة**، وتفرق بين **المشترَك** الذي لا يجوز ادِّعاء السَّرق فيه، و**المبتذَل** الذي ليس أحدٌ أولى به، وبين **المختصّ** الذي حازه المُبتدئ فملكه، وأحياه السّابق فاقتطعه، وصار المعتدي مختلسًا سارقًا، والمشارك له محتذيًا تابعًا، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه: أخذ ونقل، والكلمة التي يصحّ أن يقال فيها: هي لفلان دون فلان ».

ويبدو أنّ عوامل ثقافيّة كثيرة نبّهت أولئك العلماء إلى الموضوع، وحثّتهم على التطرّق إليه؛ لأنّه غدا – في نظرهم – إشكاليّة تدعو فعلاً إلى البحث والنّظر والحسم، منها :

1 – خصومات الشّعراء، وادّعاء بعضهم ،وبالأخصّ شعراء النّقائض، أنّ خصومهم ينتحلون الأشعار.

2 – إشارات بعض أصحاب كتب التّراجم، بعد إيرادهم أجود ما للشّاعر من أبيات، إلى إنّ معناها أخذه غيرُه من الشّعراء.

3 – كتب الموازنات بين الشّعراء، والإبانة عن سرقات بعضهم، التي وُضعت في أعلام الشّعر العربي، كالمتنبيّ والبحتري، وأبي تمّام، وأبي نواس.

وممّن نهض لمسألة السّرقات الشّعريّة من المغاربة النّاقد الفذّ ابن رشيق القيروانيّ (ت456هـ/ 1064م)، وذلك في كتابه القيّم العُمْدَة، الذي عدّه بعض العلماء تاجَ الكُتُب المُصَنَّفة في صناعة الشعر[4]، وأنّه « لم يَكْتُبْ فيها أحدٌ قبله، ولا بعده مِثْلَهُ »[5]. ثمّ في رسالته قُرَاضَة الذَّهَب.

ومن هذين المصدرين خاصّة استقيت أقسام هذه المداخلة.

يرى ابن رشيق أنّ الكلامَ من الكلام مأخوذٌ وبه متعلّق[6]. وأنّ قرائح الشّعراء تتفاضل في صناعة الكلام[7]، والسّرقات الشّعريّة « باب واسع، لا يقدر أحدٌ من الشّعراء السّلامة منه »[8]. وأنّ السَّرق إنّما يكون« في **البديع المخترَع** الذي يختصّ به الشّاعرُ، لا في **المعاني المشترَكة**...»[9]. ثمّ ذكر أنواعًا من السّرق.

وبعد أن تدبّرت تلك الأنواع، جعلتها ثلاثة أقسام:

أوّلا – **السّرقات الجليّة الواضحة:**

وتتمثّل في الأنواع الآتية :

1 – **الموارِدة :**

وهي اتّفاقُ بيتين لشاعرين مختلفين في المعنى، والألفاظ، والوزن. وأشهرُ أمثلتها بيت امرئ القيس [الطويل] :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يقولون: لا تَهْلِكْ أَسىً وَ**تَجَمَّـلِ**

وبيت طرفة بن العبد [الطويل] :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم يقولون:لا تهلكْ أسىً و**تَجَلَّـدِ**

وعلى الرّغم من عدم اطمئناننا إلى صدق طرفة بن العبد في أنّه لم يسمع بيت امرئ القيس، إلاّ أنّ بعض العلماء والشّعراء رأوا أنّه من الممكن وقوع مثل ذلك. يروى أنّ عَمْرو بن العلاء سُئل: أ رأيت الشّاعرين **يتّفقان في المعنى، ويتواردان في اللّفظ**،لم يَلْقَ واحدٌ منهما صاحبَه؟. قال: **تلك عقولُ رجالٍ توافقت على ألسنتها**[10]. وسئل المتنبّي عن مثل ذلك، فأجاب[11]: **الشّعْرُ جادّةٌ، وربّما وقع الحافرُ موضعَ الحافر**.وقال الثّعالبيّ [12] : « اتّفق لي في أيّام الصِّبا معنى بديعٌ، لم أقدّر أنّني سُبِقت إليه، ولا شُورِكت فيه، وهو قولي في آخر هذه الأبيات [مجزوء الرّجز] :

قلبـــي وَجْـــدًا مُشْتَعِـــلْ علـــى الهمُـــومِ مُشْتَمِـــلْ
وقد كسَتنِـــي فِي الهـــوى ملابِـــسَ الصَّبِّ الغَـــزِلْ
إنســـانـــةٌ فتّـــانـــــةٌ بَـــدْرُ الدُّجى منها خجِـــلْ
إذا زنَـــتْ عَيْنِي بِهَـــا فبِالدّمُـــوعِ تغْتَسِـــلْ.

فأنشدتُ لابن هندو [الطّويل] :

يقولونِ لي: ما بالُ عينكَ مذ رأتْ محاسنَ هذا الظّبي، أدمعُها هُطْـلُ
فقلت: زنتْ عيني بطلعة وجهـــه فكان لها من صَوْبِ دمعها غُسْلُ.

فصحّ عندي توارد الخواطر، وتشاركها في المعاني ».

2 – **الاجتلاب أو الاستلحاق :**

وفي هذا النّوع، يُعجب الشّاعر ببيت أو بيتين لغيره، فيضمّهما إلى قصيدته؛ لأنّه يرى أنّهما يصلحان لذلك الموضع. ومن أمثلة ذلك استلحاق عمرو بن كلثوم بيتين من شعر عمرو ذي الطّوق في معلقته ، وهما[13] [الوافر] :

صَدَدْتِ الكأسَ عنّا أمَّ عَمْرٍو وكان الكـــأسُ مَجراها اليمينـــا
وما شـــرُّ الثّلاثة أمّ عمـــرٍو بصاحبك الذي لا تصْبَحينـــا.

ومن شروط هذا النّوع اتّفاق البيت المستلحق أوالأبيات المستلحقة مع وزن النّصّ الذي نقلت إليه وقافيته. وكان العلماء القدامى لا يرون في هذا النّوع عيبًا.

3 – **الانتحـــال (أو المُصَالتة) :**

وفي هذا النّوع يأخذ الشّاعر بيتًا أو أكثر من شعر غيره، ويدّعيه لنفسه؛ لأنّه يرى أنّه أحقّ به من قائله. وهو أقبح أنواع الأخذ. ومن أمثلة ذلك قول المَعْلُوط السَّعْدي [14] [الكامل] :

إنّ الظّعائنَ يوم حَزْمِ عُنيـــزةٍ بكّينَ عند فراقهنّ عُيُـــونا
غيّضنَ من عبراتهنّ وقلنْ لي: ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا.

فانتحل جرير البيت الثّاني، وقال :

إنّ الّذين غدَوْا بلبِّك غادروا وَشَلاً بعينكِ ما يزال مَعينا
غيّضن من عبراتهنّ وقلن لي: ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

4 – **الإغـــارة والغَصْـــب :**

وفيهما يسمع الشّاعرُ كلامَ الشّاعرِ فيعجبه، ويرى أنّه أحقّ به منه، فيأخذه من قائله سلبًا وابتزازًا. والفرق بينهما يظهر في أنّ الإغارة تكون برضى الشاعر المأخوذ منه، ولو على مَضَض، بينما يكون الأخذ في الغصب قهرًا، بحيث يتنازل الشّاعر عن كلامه بالتهديد.

ويقدّم ابن رشيق أمثلة، يَظْهَرُ فيها الفرزدقُ، مغيرًا حينًا، وغاصبًا حينًا آخر، على الرّغم من علوّ طبقته، وشهادة العلماء له بأنّه «كان مِعَنًّا مِفَنًّا، يقول في كلّ شيءٍ »[15]. فمن إغارته[16] : إنّه سمع جميل بن مَعْمَر ينشد [الطّويل]

ترى النّاسَ ما سِرْنا يسيرون خلفنا وإنْ نحن أوْمأنا إلى النّاسِ وقفوا.

فقال : متى كان المُلْكُ في بني عُذْرَة؟!. إنّما هو في مُضَر، وأنا شاعرُها، فغلب على البيت، ولم يتركه جميلٌ ولا أسقطه.

ومن غصبه [17] : أنّه سمع الشّمردل بن شُرَيْك اليربوعي ينشد [الطّويل] :

فما بين من لم يُعْطِ سمعًا وطاعةً وبين تميم غير حَزّ الحَــلاقِم

فقال له: والله لتدعنّه أو لتدعنّ عِرْضَكَ. فقال له: خذه لا بارك الله لك فيه.

وقوله أيضًا لذي الرُّمَّة لمّا أخبره أنّه قال أبياتًا، و«إنّ لها لعروضًا، وإنّ لها لمرادًا ومعنى بعيدًا. قال: وما قلت؟. قال: قلتُ [الطويل] :

أحين عاذتْ بي تميــمٌ نساءَها وجُرِّدتُ تجريــد اليماني من الغِمْدِ

ومدّت بضبعيّ الرِّبابُ ومالك وعمرٌو وسالتْ من ورائي بنوسعد

ومن آل يربوع زهــاءٌ كأنّه دجى اللّيل محمود النكاية والرِّفــد.

فقال له الفرزدق: إيّاك وإيّاها، لا تعودنّ إليها، وأنا أحقّ بها منك. قال: والله لا أعود إليها، ولا أنشدها أبدًا إلاّ لك[18]

5 – **الاهتــدام (أو النّسخ) :**

يأخذ الشّاعر، في هذا النّوع، صدر البيت، ويهتدم العَجُز، فيأتي بالمعنى في غير اللّفظ. وذلك كقول

النّجاشيّ الحارثيّ [19] [الطّويل] :

وكنتُ كذي رِجْلَيْن: رِجْل صحيحة ورِجْــل رمتْ فيها يَدُ الحَدَثَــانِ

فاهتدم كثيّر بن عبد الرّحمن العذريّ البيت وقال [الطويل] :

وكنتُ كذي رجلين:رِجْل صحيحة ورِجْــل رمى فيها الزّمــانُ فَشُلَّتِ

وكقول النّابغة الذبيانيّ في المتجرِّدة [الكامل] :

لو أنّها عرضتْ لأشمطَ ، راهب يخشى الإلهَ، صرورةٍ، متعبِّــدِ

لرنا لبهجتها، وحُسْنِ حديثهــــا ولخاله رَشَدًا ، وإنْ لم يَرْشُــدِ.

فاهتدم ربيعةُ بن مَقرُوم الضَّبّيّ البيتين بقوله [الكامل] :

لو أنّها عرضتْ لأشمطَ، راهب في رأس مُشرفةِ الذُّرى يتبتّــلُ

لرنا لبهجتها، وحُسْنِ حديثها ولهمّ مــن نــاموسه يتنــزّلُ

ويكون الأخذ في هذا النّوع مقصودًا.

وفي هذه الأنواع، باستثناء الغصب، لا يسقط المأخوذ من النّصّ الأوّل (الأصل).

6 – **المُرافدة (أو الاسترفاد) :**

تكون المرافدة أو الإرفاد في الهجاء خاصّة. وتتمثّل في أبيات يهبها شاعر هجّاء إلى آخر؛ ليقهر بها شاعرًا آخر من خصومه. « ولا يعدّ ذلك عيبًا؛ لأنّه يقدر على عمل مثلها. ولا يجوز ذلك إلاّ للحاذق المُبرّز »[20].ومن ذلك ما يُرْوَى من أنّ جريرًا قال لذي الرُّمّة: أنشدني ما قلتَ لهشام المرئي، فأنشده قصيدته [الوافر]]:

نبتْ عيناكَ عن طلل بحُزْوَى مَحَتْهُ الرِّيحُ وامتنح القِطارَا

فقال: ألا أعينك؟. قالَ: بلى بأبي وأمي، قال: قل له [الوافر] :

يعدّ الناسبــون إلى تميــم بيــوتَ المجد أربعة كبــارا

يعدّون: الرِّبَابَ، وآلَ سَعْدٍ وعمرًا ثمّ حنظلــة الخيــارا

ويهلك بينها المرئيّ لغوًا كما ألغيت في الدِّية الحـــارا.

فلقيه الفرزدق فاستنشده فلمّا بلغ هذه قال: جيّد، أعده، فأعاده، فقال : كلاّ والله، لقد علكهنّ من هو أشدّ لَحْيَيْن منك. هذا شعر ابن المَرَاغة[21] .

واسترفد هشام المرئي جريرًا على ذي الرُّمَّة فقال في أبيات [الطويل] :

يمـــاشي عديًّا لؤمها ما تجنـــه من النّاس ما ماشت عديًّا ظلالُها

فقـــل لعديٍّ تستعن بنســـائها عليَّ فقـــد أعيـــا عديًّا رجـــالها

أ ذا الرُّمِّ، قد قلدت قومك رمّة بطيئًا بأيدي العاقديـــن انحلالها.

فقال ذو الرّمّة لمّا سمعها: يا ويلتا، هذا والله شعرٌ حنظليّ!، وغلب على ذي الرُّمَّة، بعد أن كان ذو الرّمّة مستعليًا عليه [22] .

ثانيـــا – السّرقات الخفية الغامضة :

وفي هذا القسم، يخفي الآخذُ الحاذقُ « دبيبَه إلى المعنى، يأخذه في سُترة »[23].

ومن أنواعه :

1 – كشف المعنى :

يستمدّ الشّاعر، في هذا النّوع ، معنى بيته من شاعر آخر معاصر له أو قديم. إلاّ أنّ المعنى يكون في ما صنعه أجلى وأوضح. كقول امرئ القيس [الطويل] :

نمُشّ بأعـــرافِ الجيادِ أكُفَّنـــا إذا نحن قُمنا عن شِوَاءٍ مُضَهَّبِ

فأبرز عَبْدَةُ بنُ الطّبيب هذا المعنى بقوله[البسيط]:

ثُمَّتَ قُمْنا إلى جُـــرْدٍ مُسَوَّمَةٍ أعـــرافُهنَّ لأيدينـــا مناديـــلُ.

ويروى أنّ الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان قال يوما لجلسائه: أيّ المناديل أشرف ؟. فقال قائلٌ منهم: مناديل مصر كأنها غِرْقِئ البيض، وقال آخرون: مناديل اليمن كأنّها نَوْرُ الرّبيع ، فقال: مناديل أخي بني سَعْدٍ عَبْدَة بن الطبيب. وذكر البيت[24] .

2 – الالتقـــاط والتّلفيق :

ويسمّى أيضًا **الاجتذاب والتّركيب**، وهو أن « ينشر الشّاعر المعاني المتقاربة، ويستخرج منها معنى مولّدًا، يكون فيه كالمُخترِع، وينظر به إلى جميع تلك المعاني، فيقوم وحده مقام جماعة من الشّعراء، وهو ما يدلّ على حذق الشّاعر وفطنته »[25] . ومن أمثلة ذلك قول ابن الطَّثْرِيَّة[26] [الطويل] :

إذا ما رآني مُقبلاً غضَّ طَرْفَهُ كأنَّ شعاعَ الشَّمْسِ دوني يُقابِلُـــهْ.

فأوّل البيت من قول جميل [الطويل] :

إذا ما رأوني طالعًا من ثنيّـــةٍ يقولون: من هذا، وقد عرفوني.

ووسطه من قول جرير[الوافر] :

فغضَّ الطَّرْف، إنّكَ من نُمَيْرٍ فلا كعبًا بلغت ولا كـــلابا.

وآخره من قول عنترة بن عِكْبرَة الطّائيّ [الوافر] :

إذا أبْصَرْتِنِي أعْرَضْتِ عنّي **كأنّ الشّمسَ من حولي تَدُورُ**.

3 – الاختلاس (أو نقل المعنى) :

وفي النّوع يحوّل الآخذ المعنى من غرض إلى آخر. من ذلك قولِ كُثَيِّر في الغزل[27] [الطويل] : أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلى بكل سبيل.
اختلس أبو نواس المعنى، وحوّله إلى المدح فقال [الكامل]:
ملكٌ تصوَّر في القلوب مثاله فكأنّه لم يخلُ منه مكـــان.

4 – النّظر والملاحظة :

وفي هذا النّوع « يتساوى المعنيان دون اللّفظ، ويخفى الأخذ »[28] ، كقول المهلهل[29] [الخفيف]:
أنْبضُوا مِعْجَسَ القِسِيِّ وأبْرِقْـــــنَا كما تُوعِدُ الفحــولُ الفُحُولا.
نظر إليه زهير بن أبي سُلمى في قولِه [الطويل] :
يَطْعَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا، حتّى إذا اطّعَنُوا ضَارَبَ، حتّى إذا ما ضَارَبُوا اعْتَنَقَا.
ونظر إليه كذلك أبو ذؤيب الهُذَليّ في قوله [الطويل] :
ضروبٌ لهامات الرِّجالِ بسيفه إذا حنّ نبعٌ بينهم وشريحُ.

5– الإلمـــام :

وفي هذا النّوع يقلب الآخذ معنى البيت وينقضه، كقول أبي الشِّيص[30] [الكامل] :
أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذة حبًّا لذكركِ فليلمني اللـــوَّمُ.
فناقض المتنبِّي المعنى بقوله [الكامل] :
أُحبُّـــه وأحبُّ فيه ملامـــةً إنَّ الملامةَ فيه من أعدائـــه.

6 – الموازنـــة :

و في هذا النّوع يأخذ الشّاعر بنية الكلام. وذلك مثل قول النّابغة التّغلبيّ [31] [المتقارب] : بخلنا لبخلك قد تعلمين **وكيف يعيب بخيـــلٌ بخيلا ؟.**
وقال كُثَيِّر، موازنًا عجز بيته بعجز البيت الأوّل [المتقارب] :
تقول مرضنا فما عدتنا **وكيف يعود مريضٌ مريضا ؟.**

ثالثا – نظم النّثر :

يأخذ الشاعر، في هذا النّوع، قولاً مشهورًا، أو عبارةً من خبر طريف، معنى وألفاظًا، أو أكثر الألفاظ، ويضمّ ذلك إلى شعره، كقول ابن عبد القدّوس[32][البسيط]:
إذا وترت امْرَأً، فاحذرْ عداوتَهُ مَن يزرع الشّوكَ لا يَحْصِدْ بِهِ عِنَبَا
فمعنى البيت وأهمّ ألفاظ عَجُزه مأخوذة من قول عيسى، عليه السّلام : « لا يُجْنَى مِنَ الشّوْكِ العِنبُ ».
وكقول البحتري [الخفيف] :
فَبَيَاضُ البَازِي أحسنُ لونًا إنْ تأمّلتِ مِن سَوادِ الغُراب
فالبيتُ مأخوذ من القول الّذي ردّ به بشّار بن بُرْد على المرأة البَصْرِيّة،الّتي قالت له يتهكّم، بعد أن رأت الشَّيْبَ في رأسه ولحيته: أيّ رَجُل أنت لو كُنْتَ أسودَ الرّأس واللّحية!. فقال لها : أما علمتِ أنّ **بيضَ البُزاةِ أثمنُ منَ سُودِ الغِرْبَان.** قالت: أمّا ذلك فحَسَنٌ في السَّمْعِ، فمن لكَ بأنْ يَحْسُنَ شَيْبُكَ في العين، كما حَسُنَ قولُكَ في السّمع ؟!.فبُهِت. وكان بشّار يقول: ما أفحمتني قطّ غيرُ هذه المرأة.

وكقول مفدي زكرياء في اللاّزمة الّتي تتكرّر في إلياذة الجزائر، بعد كلّ عشرة أبيات [المتقارب] : « شغلنا الورى، وملأنا الدّنى
بشِعْرٍ نرتّله كالصّـــــلاه
تسابيحه من حنايا الجزائر ».

فقوله: « شغلنا الورى، وملأنا الدُّنـــى » مأخوذ –في نظري– من قول ابن رشيق القيروانيّ في المتنبّي :« ملأ الدّنيا، وشغل النّاس ». ولا يرى النّقّاد عيبًا في هذا النوع من الأخذ.

رابعًا – كلام الآخذ (المتّبِع) والمبتدئ (المُبتدِع) في الميزان :

لم يكتف ابن رشيق القيروانيّ – كغيره ممّن تطرّق إلى الموضوع – بذكر أنواع السّرقات، وتقديم أمثلة لها، وإنّما نظر إلى المسألة من جانب آخر، وهو منزلة كلام الآخذ (المتبِع) من كلام المبتدئ (المبتدِع). واستنتج بعض الحالات، منها :

1 – **تقصير الآخذ عن المبتدئ :**

وفي هذه الحالة نلاحظ أنّ الآخذ لم يستطع شقّ غبار المبتدئ (المبتدع). وذلك مثل قول عَمْرِو بن معدي كرب[33] [الكامل] :

والضّـاربينَ بكلّ أبيضَ مُرْهَفٍ والطّاعنينَ مَجَامِعَ الأضْغَانِ.

وقول البحتريّ متبعًا إيّاه [الكامل] :

قومُ ترى أرمَاحَهُم يوم الوَغَى مشغوفةً بمواطنِ الكِتْمَـــانِ.

فنزول بيت البحتريّ عن الأوّل ظاهر؛ لأنّ قولَ عمرِو بنِ معدي كرب : " مجامع الأضغان " أجود من قوله: " مواطن الكتمان "؛ «لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضغانهم، فإذا وقع الطّعن في موضع الضّغن فذلك غاية المراد»[34] .

2 – **تكافؤ الآخذ والمبتدئ :**

وفي هذه الحالة نلاحظ تناسبًا أو تكافؤًا بين كلام الآخذ والمبتدئ، وذلك كقول امرئ القيس[35] [الطويل] :

فلو أنّها نفسٌ تموتُ جميعةً ولكنّها نفسٌ تَسَاقَطُ أنْفُسَا

وقول عبدة بن الطّبيب يرثي قيس بن عاصم [الطويل] :

فلم يَكُ قيس هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ولكنّه بنيـــانُ قومٍ تهدَّمَـــا.

3– **تفوّق الآخذ على المبتدئ :**

وفي هذه الحالة يكونِ كلامِ المتبِّع أجود من كلام المبتدئ. من ذلك قولِ بشّار[36] [البسيط]: مَنْ رَاقبَ النّاسَ لمْ يَظفرْ بحَاجَتِهِ وفازَ بالطيِّباتِ الفاتكُ اللّهِـــجُ

فأخذ سَلَمُ الخاسرُ المعنى، وصنع ما هو أجود منه [مجزوء البسيط] :

مَنْ رَاقب النّـــاسَ مـــاتَ غمّا وفـــازَ باللّـــذةِ الجَسُـــورُ.

فلمّا سمع بشّار هذا البيت، قال: ذهب ابن الفاعلة ببيتي[37] . وأبعده عن نفسه، وقطعه عن مجلسه[38]. ومن ذلك أيضًا قول الأعشى في الخمر وولعه بها [المتقارب]: وكأسٍ شَرِبْتُ على لـــذّةٍ وأخرى تداويتُ منها بهـــا

فكان النّاس يستحسنون معنى بيته وتأليفه، حتّى ظهر أبو نُوَاس وقال [البسيط] :

دعْ عنكَ لومي فإنَّ اللّوم إغــراءُ وداوني بِالّتي كانتْ هي الــدّاءُ.

فأخذ أبو نواس – كما يلاحظ – المعنى، وغيّر اللفظ، وزاد زيادة حسنة. وبذلك استحق منزلة المُبتدِع (الأعشى).

ثمّ جاء الشاعر السّوري الشّهير نزار قبّاني ، وقال في قصيدته " رسالة من تحت الماء " : « أو كنت **طبيبي**، ساعدني كي **أُشفى منك** ».

(يلاحظ أنّ الشّاعر قال: **منكَ** ولم يقل: **بكَ**. فالطبيب (الحبيبةِ) هو الدّاء عينه). وفكرة الأبيات هي عندما يغدو ما يتولّعُ به الإنسان حتى الوَلَه هو الدّاء والدّواء.

وفي هذا النّوع يتجلّى فضل المتأخِّر على السّابق. يقول أبو هلال العسكريّ[39] : « ليس لأحدٍ من أصناف القائلين غنىً عن تناول المعاني ممّنِ تقدّمهم، والصّبِّ على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يَكْسُوهَا ألفاظًا من عندهم ويُبرزوها في مِعارضَ من تأليفهم، ويوردوها في غير حِلِيتها ومعرضها. **فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممّن سبق إليها** ».

ومن هذا الموضوع الشيِّق والشائك في الآن نفسه، استخلصتُ الأفكار التّالية :

1- البحث في السّرقات الشعريّة دليل على نشاط علمائنا القدامى، وحيويّتهم، وتفاعلهم الإيجابي مع ما كانٍ يجري في الميدان الثّقافي.

2- النظر في السّرقات الشعريّة يمثّل مظهرًا من مظاهر تطوّر البحث النّقدي العربي القديم وحيويّته (الموازنة بين معاني النّصوص الأدبيّة، وألفاظها، وأساليبها).

3- اعتماد العلماء معايير علميّة: فراعوا عامل الزّمن (أقدم النصوص إلى تناول المعنى)، وقابلوا النّصّ بالنّصِّ أو النصوص الّتي لاحظوا أنّ بينها صلات ما، كما ابتعدوا عن الأحكام الانطباعيّة، واستندوا إلى معايير نقديّة واضحة، تأخذ بعين الاعتبار المعنى، والمعجم، والبناء الصّرفي، والتركيب، والأسلوب، والإيقاع الخارجي (الوزن الشِعري)...وبذلك كانت أحكامهم معلّلة.

4- في تراثنا الشعري معانٍ مفردةٌ، وتشبيهاتٌ عُقْمٌ ظلّت شامخة كالأطواد لم ينازع أصحابَها أحدٌ فيها.

5- السّرقات الشعريّة موضوع تتجلّى فيه **الأصالة** في كلّ جوانبه: مدوّنة، ومصطلحات، وأدوات الفحص والتمييز (علوم اللّغة العربيّة، والبلاغة، والعروض).

وبعد هذا كلّه، ما الجوانب الّتي تتقاطع فيها السّرقات الشِّعريّة، كما فهمها علماؤنا القدامى مع التّناصّ كما فهمه علماء الغرب،وفي مقدّمتهم الباحثة Julia KRISTEVA، وبعض العلماء العرب المعاصرين، وعلى رأسهم الأستاذ محمّد مفتاح؟.إنّ الإجابة عن هذا السّؤال ستكون موضوع دراسة أخرى سأعدّها، إنْ شاء الله، مستقبلاً.

الهوامش

(1) شارك الباحث بهذه الدّراسة في الملتقى الوطني الأوّل حول « التّراث وآليات القراءة » الّذي نظّمه قسم اللّغة العربيّة وآدابها بجامعة 20أوت1955م- سكيكدة، يومي 5و6 ديسمبر 2006م.

(2)،(3) الوساطة بين المتنبّي وخصومه. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاوي. منشورات المكتبة العصريّة، صيدا-بيروت، (د.ت).ص183.

(4) القفطي، إنباه الرّوّاة على أنباه النحاة.تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط1؛ 1369هـ/1950م.304:1.

(5) ابن خلدون، تاريخ العلّامة ابن خلدون. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللّبناني، بيروت-لبنان، ط3؛ 1968م. 1106:1.

(6) قراضة الذّهب في نقد أشعار العرب. تحقيق د. منيف موسى. دار الفكر اللّبناني، بيروت-لبنان، ط1؛ 1991م. ص53. (7) م. ن ، ص55.

(8) العمدة في محاسن الشعْر وآدابه ونقده. تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد. دار الجيل، بيروت-لبنان، ط5؛ 1401هـ/1981م. 280:2.

(9) م . ن ، 281:2.

(10)،(11) م.ن، 289:2.

(12) قراضة الذّهب، ص ص 81-82.

(13) العمدة 283:2.

(14) م . ن ،2: 283-284.

(15) ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء. تحقيق أحمد محمّد شاكر. دار المعارف، القاهرة، (د.ت).473:1.

(16) العمدة 2: 284 -285.

(17)،(18) م.ن ، 285:2.

(19)،(20) م.ن، 287:2.

(21)،(22) م.ن، 286:2.

(23) أبو هلال العسكري، كتاب الصّناعتين (الكتابة والشّعر). تحقيق د. مفيد قميحة. دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط2؛ 1404هـ/1984م. ص219.

(24) العمدة290:2.

(25) ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرين. دار العلم للجميع، بيروت-لبنان، (د.ت).ص ص 58-59.

(26) العمدة2 289-290.

(27) م . ن ،2: 287-288.

(28) م . ن ، 282:2.

(29) م .ن ،287:2.

(30) الوساطة:206.

(31) العمدة2: 288-289.

(32) م . ن،2: 293-294.

(33)،(34) كتاب الصّناعتين :254.

(35) العمدة ، 2: 291.

(36)،(37) كتاب الصّناعتين:234ـ235.

(38) قراضة الذهب:60.

(39) م .س ، ص217.